خطبة الجامع الأموي لفضيلة الشيخ مأمون رحمة

٢١ من المحرم ١٤٣٦ هـ / ١٤ من تشرين الثاني ٢٠١٤ م

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، اللهم صل وسلم وبارك على نور الهدى مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وارضَ اللهم عن الصحابة ومن اهتدى بهديهم واستنّ بسنّتهم إلى يوم الدين.

عباد الله، أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله عزَّ وجل، واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين.

يقول المولى ﷻ في القرآن الكريم مادحاً الأنصار بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ٩-١٠].

معاشر الإخوة: الأخوة رابطة نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة والمحبة والمسؤولية تجاه الآخرين، فهذا الشعور الأخوي الصادق يُولد في نفس الإنسان أصدق العواطف النَبيلة في اتخاذ مواقف إيجابية من التعاون والرحمة والإيثار والعفو عند المقدرة، واتخاذ مواقف سلبية من الابتعاد عن كل ما يَضر بالناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم والمساس بكرامتهم، ولقد حث الإسلام على هذه الأخوة في الله، وبين مُقتضياتها وملتزماتها في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] وقال سبحانه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ [آل عمران: ١٠٣] فالأُخوة الحقيقية تنبع من رِقَّة في القلب وحساسية في الضمير وإرهاف في الشعور تستهدف الرأفة بالآخرين والتألم لهم والعطف عليهم وكفكفة دموع أحزانهم وآلامهم، وهي التي تُهيب بالمؤمن أن ينفر من الإيذاء وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وبر وسلام للناس أجمعين، قد يتعاشر شخصان على ما قَلَّ أو كثر من مشاعر الحياة الرخيصة أو الغالية، أما الأخوة التي يرتفع عليها صرح المجتمع الإسلامي وتتماسك لبناته بقوتها فيجب أن تكون لله وحده، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في الحديث الذي رواه ابن

ماجه: (ثلاث مَن كن فيه فقد وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) فالأُخوة في الله أساس الدين الخالص، وهذه الأُخوة هي روح الإيمان الحي، ولُبابُ المشاعر الرقيقة التي يُكنها المسلم لإخوانه، حتى إنَّه ليحيا بهم ويحيا لهم، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة.

إن الخطوط التَّوضيحية -يا سادة- التي رسمها الإسلام للمجتمع الذي يَنشدهُ تُشير كلها إلى أَنَّه لا بُدَ من اجتثاث عوامل المسكنة والانقطاع والعِوَز، وإمدادُ كل فرد بما يَحفظ كيانه ويصون حياته، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في الحديث الصحيح بقوله: (من كان عِندهُ فَضلُ ظَهرٍ فَليَعُد بهِ على مَنْ لا ظهر له، ومَنْ كان لَهُ فضلُ زادٍ فَليَعُد بهِ على مَنْ لا زادَ له) فَلما بُني أول مجتمع إسلامي في المدينة سَنَحَت الفُرصة العَملية لتحقيق هذه القاعدة، فَكانت الأُخوة المتكافلة في السراء والضراء، المتقاسمة للخير والشر، المتساوية في نيل الفرص أو الحرمان منها؛ هي الدَّعامة المكينة التي قامت عليها هذه الأمة في أنقى عصورها، ولقد أراد النبي ﷺ الغزو مرةً فقال: (يا معشر المهاجرين والأنصار، إنَّ من إخوانكم من ليس له مال ولا عشيرة، فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة) قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه راوي الحديث: فضممت إليَّ اثنين أو ثلاثة ومالي إلا عقبة كعقبة أحدهم مِنْ جملي، أي كانوا يتناوبون في المسير على الجمال، من أجل ذلك -يا سادة- أثنى الله على الأنصار وامتدحهم لأنهم كانوا يتحلون بصفة الإيثار، حيث قال سبحانه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] كما بَيَّن فَضلَهُ ونِعَمَهُ على المهاجرين فَذَّكرهم بآلائه عليهم بقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

يا سادة: إن الخبراء بالنفس الإنسانية يعلمون أن أفراد المجتمع لو تساووا في الحرمان والأزمات ما شعر أحد منهم بغضاضة، بل لعل في هذا عزاءٌ وسلوى للجميع، وتلك حالُ الأمم عندما تَشْتَبِكُ في حرب، فتتوزع المصائب والتضحيات على كافة طبقاتها، عندئذ لا يُمكن أن يكون هناك موضعٌ لِتَبرُم فردٍ أو سُخط جماعة، أما إذا امتلأ بَيتٌ بِالنِّعمةِ وغَصَّ آخر بِالنِّقمة، وأما إذا مَرت بالشعوب فتراتٌ طائِشة تَسوقُ السُّرور إلى بيت والكآبة إلى بيت آخر لِغَير حِكمة واضحة أو امتياز معروف، فهنا موضع الضغينة ومنبع الحسد والعداوة وعلة الاضطراب والفوضى، وقد تتضمن الإسلام طائفة من الوصايا التي يصح أن تُعتبر علاجاً وحلاً لهذه المشكلة المعضلة، ولا بأس مِنْ أن تستكمل اتجاهاتها النَّبيلة بمختلف التشريعات

الملائمة، تَأَمَّل في هذه الوصايا التي يسوقها رسول الله ﷺ قال: (أتدري ما حق الجار؟ إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عُدت عليه، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيته، وإذا مَات اتبعت جنازته، ولا تَستطل عليه بالبنيان فتَحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تُؤذيه بِقُتَار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها، إذا اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده) تِلك النصائح -يا سادة- لها أثرها العَميق في البِيئة العربية الساذجة.

إن المترفين والمنعمين والبعيدين عن المآسي والأحزان يَقضون أعمارهم في أيام بَاسمة وليالٍ حَالمة، على حِين يَحصد الحرمان أَجيالاً غفيرةً من الضحايا والمنكوبين، فلا عجب إذا سمى الإسلام هؤلاء شَياطين، واعتبر بُيوتهم التي يسكنونها بيوت الشياطين، ومَراكبهم التي يَركبونها مراكب الشياطين، فقد رَوى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين) فأما إبل الشياطين -يقول أبو هريرة- فقد رأيتها، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيراً منها، ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله، وأما بيوت الشياطين فلا أرها إلا هذه الأقفاص التي تَستر الناس بالديباج.

من هنا تدرك أن الناس عندما يتخلون عن مشاعر الحب والرحمة، وتستبد بهم نوازع الأثرة والتكاثر يتحولون إلى وحوش مَرهوبة الفتك، فالمجتمع السليم والمعافى هو الذي يعيش أبنائه متحابين متراحمين متماسكين، كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: (مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

ولقد وردت في الإسلام نصوص كثيرة مفصلة ومجملة تَدعو وتحض على القيام بأنواع من الخدمة الاجتماعية التي يحتاجها كثير من الناس، فالشيوخ والعجزة والمتعبون يَجب -نعم يجب- أن تُبذل لهم المساعدات التي يتطلعون إليها، وعلى الأقوياء أن يَقوموا بهذا العبء في كل زمان ومكان. والأطفال المشردون الذين فقدوا آبائهم حقيقة أو حكماً يَجب أن نعنى بكفالتهم وأن نُشرف على توجيههم وتعليمهم وتربيتهم حتى يَستغنوا بأنفسهم، فقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (خَير بَيت في المسلمين بَيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بَيت في المسلمين بَيت فيه يتيم يُساء إليه). والنسوة اللاتي فقدن رجالهن يجب أن تُضمن لهم حياة العفاف والكرامة، وأن لا يتركن لقسوة الزمن وتقلبات الليالي، قال عليه الصلاة والسلام: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار). وإعطاء العمال والموظفين رَواتب سمحة تسد الحاجة وتغري بالإجادة أَمر لا يُسوغ نسيانه.

وكفالة أبناء الشهداء الذين يدافعون عن الأرض والعرض وخدمة أهليهم ومواساتهم من أفضل وأحب الأعمال إلى الله ﷻ، كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ جَهَزَ غازياً في سَبيلِ الله فقد غَزَى، ومَنْ خَلَفَ غازياً في أهله بِخيرٍ فقد غَزَى).

فالإسلام دين يَعتمدُ على الضَّمير الإنساني في غَرس هذه المبادئ، ويَكيلُ إلى الأفئدةِ الرَّقيقة والقُلوبِ الشَّفيقة أنْ تَصْبغَ المجتمع بهذا الحَنان والرِّفق في إقامة شتى العَلائق بين بَنيه، ومِنْ ثَمَّ يُوصف النَّاس بِأنهم إخوةٌ أو رفاقٌ أو مواطنون، فإذا لم يَتَكون في الفرد هذا الضمير الاجتماعي فهو إنسان ساقط لا إيمان له، وإن زَعَمَ أنَّهُ مُؤمن، وذلك لأن الإسلام -احفظها أيها المسلم- أُخُوَةٌ في الدِّين واشْتِراكيةٌ في الدُّنيا، والحق أن الإسلام في نهضته الأولى قام على هذه الاشتراكية الشريفة الطَّهور، فلم تَعرف الأرضُ أُخوة أوثق ولا أعرق مما قام بين أصحابِ مُحَمَّد صلوات الله وسلامه عليه، ولم تَعرف تآخياً في الله وإعزازاً في الحق وتضحية في سبيله مثل ما عرف عن أصحاب مُحَمَّد صلوات الله وسلامه عليه.

معاشر الإخوة: في الهجرة سطر الصحابة العظماء أروع الدروس في الأخوة والتراحم والعطاء، من أجل ذلك امتدحهم الله عز وجل في محكم تبيانه وتنزيله للقرآن الكريم، فهو يُتلى إلى يوم القيامة، وعلم البشرية جمعاء -لا سيما الأمة الإسلامية والعربية- أنهم ما داموا متمسكين بالأخوة متمسكين بالمحبة يشعر بعضهم بشعور الآخر لا ينام أحدهم على الحرير وينام الآخر في الجحيم، عندما يكونون أمة واحدة يتمثلون بجسد واحد، آلامهم سوية، أفراحهم سوية، أحزانهم سوية، عندها تجد هذه الأمة قوية، ولا يمكن لأعدائها أن ينالوا منها مهما تكاثر عددهم وقويت عدتهم، أما عندما يتفرق المسلمون -كما هو حالهم اليوم مع الأسف- فإنك تجد الحال ينطبق عليهم كما قال عليه الصلاة والسلام: (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية).

وإنني أوجه كلمة إلى هذا الشعب العظيم إلى شعبنا السوري العريق أقول له: إن من إخوانكم من تهجر، ومن تضرر، ومن فقد عمله، ومن فقد وظيفته، ومن فقد أحبابه، ومن فقد ما فقد بسبب هذه الحرب الشرسة التي شنت علينا، لا ينبغي علينا أن نرفع الأسعار في الغلاء، لا ينبغي علينا أن نغلي الأسعار أبداً، أيها التاجر الشجع، أما امتلئت جيبك بَعد؟ أما ترحم الذين يَشتهوا أن يشتروا فاكهة إلى أطفالهم، أم أن الفاكهة أصبحت عليهم حراماً؟ يا من تأجرون البيوت، أما تشعرون بإخوانكم الذين أرغمهم الإرهاب على النزوح وتركوا بُيوتهم ولجؤوا إليكم؟ فأنتم تستغلونهم من ناحية المادة، تطلبون الأجور المرتفعة

تطلبون الأموال الأكثر، من أجل أي شيء، أما هو أخوك في الوطنية، أما هو أخوك في الإنسانية، أما هو أخوك في الدين؟ أين ثقافتنا الإسلامية، أصبح -مع الأسف- المال هو المطلب الأول والأخير، والمال هو المقصود الأول والأخير، فهل نرحم بعضنا -يا سادة- حتى يرحمنا الله ﷻ، وينزل علينا من خيرات وبركات السماء؟ فنحن على أبواب فصل الشتاء ألا ترون إلى هذه الشمس الحارة التي أذابت قلوبنا وأكبادنا، ونحن نَشتهي قطرة ماء تَنزل علينا من السماء، فالمفتاح في أيدينا، كيف لا وقد قال عليه الصلاة والسلام: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) (الراحمون يرحمهم الرحمن) تفقد أيها السوري أخاك، أخاك في الدين، أخاك في الإنسانية، أخاك في الوطنية، وإذا كنا مسلمين حقيقين ومؤمنين حقيقين يَنبغي علينا أن نطبق الشريعة الإسلامية، وأن نحتذي حذو أو الطريق الذي رسمه لنا رسول الله ﷺ كما سار عليه أصحابه العظماء والكرام.

ونحن على أبواب مناسبة وطنية عظيمة غالية على قلوبنا جميعاً، نَفتخر ونعتز بها، إنها مناسبة قيام الحركة التصحيحية المباركة التي قادها القائد الخالد "حافظ الأسد" رحمه الله القائد العربي الشريف المقاوم، أربعة وأربعون عاماً -يا سادة، يا سوريون- مرت على تأسيس هذه الحركة المباركة، ماذا فعل "حافظ الأسد" آنذاك؟ بَنى السدود، وأنشئ المعامل والمصانع والمطاحن، وفتح الشوارع، وقدم كل ما يَحتاجه المواطن مِن خدمات، ونحن في أربعة أَعوام -مع الأسف يا سوريون، مع الأسف يا عرب- في أربعة أعوام دمرنا سورية ورجعنا إلى الوراء مائة عام، يا من دمرتم سورية باسم الحرية وباسم ديموقراطيتكم المكذوبة، ماذا قدمتم، ماذا صنعتم للوطن، ماذا صنعتم لأبناء الشعب السوري، أجيبونا يا كذبة، أجيبونا يا خدام بني صهيون، أجيبونا ماذا فعلتم؟ رحم الله تلك الأيام عندما كنا نَسرح ونمرح في الغوطة الشرقية بين أشجارها وأزهارها، وهَا هي اليوم قد تحولت إلى جحيم، عندما كنا نَسرح ونمرح ونتسوق من مدينة جوبر، وانظروا يا مرتزقة يا خدام بني صهيون ماذا فعلتم بجوبر، حفرتم الأنفاق في أسفلها وقاتلتم جيشكم في أعلاها، قتلتم الأرواح ودمرتم البنيان، وماذا تريدون بعد ذلك؟.

مطلوب منا -يا سوريون- اليوم أن نعود إلى رشدنا وإلى عقلنا، وإلى التكاتف مع بعضنا البعض حتى نعيد سورية رغم أنوف من دمرها ومن خربها ومن يعمل على إزالتها، أن نعيد إليها ألقها الذين كانت عليه هو أفضل لا سيما ونحن نطرق اليوم -كسوريين- باب المصالحة الوطنية، الطريق الوحيد اليوم لكي تحقن الدماء ويبنى العمران ويرجع الناس إلى أملاكهم وأعمالهم وبيوتهم هو أن نمد أيدينا إلى أيدي بعضنا

البعض كسوريين، وأن نُلقي السِّلاح فالرجولة ليست بالسلاح يا كذبة، الرجولة ليست بالسلاح وليست في القتل والإجرام، الرجولة أن نلقي السلاح وأن نتصافح ونتعانق ونستغفر ربنا ونتوب إليه مما فعلناه في حق أنفسنا وبحق وطننا، ينبغي علينا أن نسير في هذا الطريق إذا كُنَّا سوريين حقيقيين مُسلمين حَقيقيين مؤمنين حقيقيين، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

مديرية أوقاف دمشق